

العودة عن مرسوم ناننت: قراءة الواقع في القرن التاسع عشر

خلال ثورات وطننا المضطرب، شهدت حدودنا حركة هجرة عددًا من المرات. ولمرات عدة عرفت غابات الأردن، ومنطقة سيدرون ما بين ليون وجنيف، وسواحلنا مع المحيط، هاربين، متكرين بألف شكل وشكل، يبحثون عن خلاصهم في المنفى. لكن، بين الهجرة والهجرة الكبيرة هنالك فارق. البروتستانتية يمكنه أن يبقى. ونحن نقوم بمجهود من أجل المحافظة عليهم، فليقل كلمة واحدة، وهو سيتمكن من المحافظة على أملاكه وعلى وطنه، وتوفير المخاطر الكبيرة عليه. إن مهاجر العام 1793 كان يريد إنقاذ حياته؛ أما مهاجر العام 1685 فهو كان يريد المحافظة على ضميره.

إن هرب البروتستانتية هو أمر إرادي. إنه فعل وفاء وصدق، إنه الرعب من الكذب، إنه احترام الكلمة. إنه لأمر مجيد للطبيعة البشرية أن يقوم عدد كبير من الرجال، كي لا يكذبون، بالتضحية بكل شيء، والانتقال من الغنى إلى التسول، وتعريض حياتهم للصدفة، وعائلاتهم، في مغامرات خطيرة لهرب شديد الصعوبة. نحن نرى هنا مؤننين مصممين. أنا أرى أصحاب شرف برهنوا في كل أرض أنهم نخبة فرنسا. إن الشعاع الشجاع الذي قام المفكرون الأحرار بتعميمه، هو تمامًا بفعل الهجرة البروتستانتية، التي واجهت بشجاعة الموت والأهوال لكي يبقوا عزيزون وحقيقيون. الحياة من أجل الحقيقة!

لهذا، فإن طرق المرور، والمسببات، والغابات، والجبال، وأماكن التجمع، هي أمور مقدسة ضمن ذكرياتهم. كم من دموع ذرفت. كان من النادر أن نذهب سويًا. كانت العائلة تنقسم أحيانًا من أجل أن تهاجر إلى أماكن مختلفة، أو أحيانًا بسبب استحالة أن يتم تهريب المرضى من بينهم، والنساء الحوامل اللواتي يجرن ورائهن أطفالًا صغارًا. كانوا يفترقون عن بعضهم البعض، وغالبًا، من أجل الذهاب إلى أماكن مختلفة. فهذا كان يفنى، وتلك كانت تختطف، ويتم احتجازها، وتضيق إلى الأبد. لم يكونوا يتلاقون مجددًا إلا في السماء.

جول ميشيليه، تاريخ فرنسا. لويس الرابع عشر والعودة عن مرسوم ناننت، الجزء الأول، باريس، فلانماريون، 1896 (طبعة نهائية، الأعمال الكاملة)، مقتطفات من بداية الفصل 23، بعنوان "الهروب - الاستضافة في أوروبا (1686)"، ص. 324-325.